# الخط المسماري واللغة الأكدية: اثنان من أبرز العوامل المشتركة بين الحضارات القديمة في الوطن العربي

الدكتور فاضل عبد الواحد علي

أستاذ السومريات / جامعة بغداد / قسم الآثار

## تعريف بالبحث:

يتناول هذا البحث الخط المسماري واللغة الأكدية باعتبارهما من المظاهر الحضارية الرئيسية التي كان لها دور فعّال في تقوية وتعزيز الروابط بين المراكز الحضارية القديمة في الوطن العربي. ومع اعترافنا بالأهمية القصوى للعوامل المشتركة الأساسية الأخرى، والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، تشابه البيئة الجغرافية وامتداد الأرض بلا حدود، وتشابه الأنماط الإجتماعية والسمات التاريخية المشتركة، فإننا نعتقد أن الخط المسماري واللغة الأكدية كانا عاملين بارزين في هذا المجال، أسهما بصورة أساسية في انتقال الكلمة والرمز والأفكار والمعتقدات.

## خطة البحث:

يهدف البحث كما قلنا إلى إبراز دور الخط المسماري واللغة الأكدية وفروعها البابلية والأشورية، في تعزيز الوحدة الفكرية والثقافية بين بلدان العالم العربي منذ أقدم العصور. ولذلك فالبحث يرجع في استقصاء الموضوع إلى أقدم العصور الحضارية، وعلى وجه التحديد إلى بداية الألف

الرابع قبل الميلاد الذي شهد ميلاد الكتابة في بلاد وادي الرافدين. والبحث يستمدّ مادته أيضاً من النصوص المسمارية أساساً، ومن التنقيبات الآثارية في العراق وفي الوطن العربي وأجزاء مختلفة من الشرق الأدنى القديم. ويتناول البحث بالتركيز دون التفصيل النقاط التالية:

نشأة الخط المسماري في بلاد وادي الرافدين. الظروف والمسببات التي أحاطت ظهوره. الأطوار التي مر بها الخط المسماري. تطوره وانتشاره داخل القطر. إنتشاره خارج بلاد وادي الرافدين، أثر الخط المسماري على الخط العيلامي. إنتشار الخط المسماري إلى الأنضول وسوريا واستعماله من قبل شعوب الحثيين والميتانيين والخوريين. اللغة السومزية والأكدية (وفروعها). أبرز اللغات التي دونت بالخط المسماري في العراق. الأموريون في العراق وتبنيهم الخط المسماري واللغة الأكدية، المنجزات الحضارية الأساسية في بلاد وادي الرافدين وانتشارهما عن طريق الخط واللغة البابلية إلى المراكز الحضارية في الوطن العربي.

**التفاصيل:**

شهدت بلاد وادي الرافدين، وعلى وجه التحديد سومر، ظهور أقدم وسيلة للتدوين في حدود سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد. وتعتبر ألواح الطين المكتوبة التي عثر عليها في الطبقة الرابعة من مدينة الوركاء ،من أقدم النماذج المكتشفة لحد الآن. وقد شاع استعمال مصطلح «الكتابة المسمارية» (Cuneiform) للدلالة على الخط المستعمل في بلاد وادي الرافدين. وجدير بنا أن ننوه هنا إلى حقيقة مهمة وهي أن مصطلح الخط المسماري يمكن إطلاقه على الكتابة في مراحلها المتطورة، أي عندما أصبحت العلامات تأخذ شكل المسامير بسبب النهاية المدببة لقلم القصب (Stylus)، ولكن من الصعب تعميمه على الكتابة في مراحلها الأولى عندما كانت العلامات مجرد صور للأشياء التي يراد التعبير عنها، وهي المرحلة التي عرفت بـ «الكتابة الصورية» (Pictographic).

وهناك من الباحثين من يعتقد أن الأختام المنبسطة التي تنقش عادة بعلامات أو شارات مميزة للدلالة على الملكية، والتي استعملت في عصور مبكرة من بلاد وادي الرافدين، ربما كانت عاملاً محفزاً للتوصل إلى وسيلة للتدوين (الكتابة). في حين ينفي بعض الباحثين أن يكون للختم أي تأثير في هذا المجال[1].

إن ظهور الكتابة في بلاد سومر إنما يرجع بالدرجة الأولى، إلى الحاجة الملحة لوجود وسيلة لحفظ سجلات بواردات المعبد المتزايدة وبمدخولات دويلة المدينة السومرية (City – State)، التي أصبح إقتصادها في نمو مستمر. وقد سميت الحقبة التي شهدت ظهور الكتابة في مراحلها الأولى بـ«الدور الشبيه بالكتابي» (Protoliterate) وهو دور يتميز بكون الكتابة في أطوارها ومحدودة في استعمالها وانتشارها. وقد أطلق المختصون بالمسماريات تعبير «النصوص البدائية» (Archaic) على رقم الطين التي تعود إلى هذا الدور الممتد من ٣٠٠٠ ـ ٢٦٠٠ق. م. والتي تشمل الرقم المكتشفة في الوركاء ( الطبقة ٤/أ والطبقة ٣/ جـ ـ أ ) وفي جمدة نصر والعقير واور ( الطبقة ٥ ـ ٤ ) وفي مدينة فآرة ( شروباك ). وإذا ما استثنينا نصوص شروباك، فإن كل النصوص السابقة الذكر هي وثائق إقتصادية ولا تفيد في دراسة قواعد اللغة السومرية في هذا العصر المبكر[2].

لقد مرت الكتابة في هذا الدور ( الشبيه بالكتابي ) بثلاث مراحل مهمة من التطور هي كالآتي:

١ ـ الطور الصوري (Pictographic): أي التعبير عن الشيء برسم صورته.

٢ ـ الطور الرمزي (Ideographic): أي استنباط معانٍ جانبيه من صورة الأصل، كاستخدام العلامة الدالة على الشمس للتعبير عن معانٍ مشتقة مثل ( لامع، ساطع، مشرق. . . ) وبالمثل للتعبير عن كلمة ( يوم ) لأن شروق الشمس وغروبها يمثلان يوماً. . .

٣ ـ الطور الصوتي: وفيه استخدمت العلامة ليس من أجل معناها الصوري أو الرمزي وإنما من أجل صوتها فقط، وبهذه الوسيلة أمكن كتابة أسماء الأعلام والأشياء على هيئة مقاطع صوتية.

وقد صاحبت هذه التغيرات في مدلول العلامات تغيرات في الشكل أيضاً. إذ أخذت العلامات تفقد شكلها الصوري بصورة تدريجية نتيجة عوامل عديدة، لعل من أبرزها أن المادة المستعملة للكتابة وهي الطين غير ملائمة لرسم صور الأشياء، لكنها ملائمة جداً لكتابة العلامات بشكل خطوط مستقيمة وذلك بضغط رأس القلم قليلاً على وجه الرقيم. وبذلك صارت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة، أفقية وعامودية، ومن زوايا مائلة. كما أن رأس القلم المدبب أعطى هذه الخطوط رؤوساً مدببة تشبه المسامير. ثم أن عدم توصل سكان بلاد وادي الرافدين إلى الكتابة الهجائية، كان عاملاً معوقاً اضطرهم إلى أن يستخدموا أعداداً كبيرة من العلامات المسمارية. وقد بلغ عددها في العصور الأولى من تاريخ الكتابة ما يزيد على ٢٠٠٠ علامة، لكنها لم تلبث أن اختزلت بمرور الزمن حتى أصبحت في حدود ٨٠٠ علامة في نهاية عصر فجر السلالات الثاني ( ٢٦٠٠ ق.م ).

كان الطين مادة الكتابة الأساسية في بلاد وادي الرافدين وقد كتبوا على الحجر وعلى مواد أخرى. وكان السامريون في جنوب وادي الرافدين أول من استنبط هذا النمط من الكتابة، بدليل ان أقدم النصوص الكتابية التي وصلتنا لحد الآن مدونة باللغة السومرية. ولم تلبث الكتابة في القرون اللاحقة ان انتشرت وتعارف النساخ السومريون على أشكالها وقيمها الصوتية والرمزية، وصارت وسيلة للتدوين في منطقة واسعة من بلاد سومر وأكد، إذ وصلتنا نصوص كثيرة من الحقبة الزمنية المعروفة بعصر فجر السلالات الثالث (٢٦٠٠ ـ ٢٣٠٠ق. م) ومن مدن عديدة مثل لكش ونفر واور وأوب وهي نصوص إقتصادية، ومنها أيضاً كتابات

للملوك وأمراء دويلات المدن السومرية تسجل أعمالهم ومنجزاتهم المعمارية والعسكرية وإصلاحاتهم الإجتماعية.

واستمرت الكتابة في الانتشار في مدن وقرى وأرياف البلاد من أقصى جنوبها إلى أقصى شمالها، حيث انتشر النساخ يكتبون العقود والرسائل ومختلف الوثائق اليومية الأخرى.

وقد احتلت المدارس في كل ذلك دوراً بارزاً في عملية التعليم ونشر الثقافة والعلوم السومرية والبابلية. وبقي الخط المسماري متداولاً كوسيلة للتدوين في بلاد وادي الرافدين إلى عصور تاريخية متأخرة جداً. فقد عثر على نصوص فلكية يعود تاريخها إلى سنة (٣٥) و(١٠) و(٩) و(٦) قبل الميلاد[٣].

هذا عرض موجز لتاريخ نشأة الكتابة وتطورها في بلاد وادي الرافدين. بقي علينا الآن الحديث عن مدى انتشار الخط المسماري إلى المراكز الحضارية القديمة في الوطن العربي، وأثر ذلك في نقل الثقافة والعلوم السومرية والبابلية والأشورية إلى تلك المراكز.

من المعروف أن الخط المسماري انتشر خارج حدود بلاد وادي الرافدين في عصر مبكر، وكان انتشاره وشيوع استعماله في البلدان القديمة من الوطن العربي قد أوجد رباطاً وثيقاً كان له نتائجه المهمة في انتقال المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الأدبية والثقافية، ولا نكون مغالين إذا قلنا ان أعظم إنجاز حضاري قدمته بلاد وادي الرافدين في تاريخها القديم، والذي أفادت منه شعوب المنطقة العربية القديمة وشعوب الأمم الأخرى المجاورة، هو الخط المسماري الذي كان من أقدم وسائل التدوين التي توصل إليها الانسان للحفاظ على تاريخه وتراثه ومنجزاته، والذي بقي في الاستعمال عبر مسيرة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة آلاف سنة. وأهم من هذا وذاك فإن هذا الإنجاز الحضاري العظيم الذي كان الفضل في اكتشافه يعود إلى السومريين، والذي حمل مسؤولية

تطويره وتهذيبه الأكديون والبابليون من بعدهم، كان بمثابة «قدح الزند» الذي أعطى الحافز لمن جاء بعدهم للتفكير في إيجاد نمط كتابي جديد أقل تعقيداً والذي تتوج في نهاية المطاف بالتوصل إلى الحروف الهجائية.

وهناك من الأدلة ما يشير إلى أن الخط المسماري انتشر في عصر مبكر إلى خارج بلاد وادي الرافدين، فبعد قرنين تقريباً من ظهور الكتابة في بلاد سومر (في حدود ٣٢٠٠ ق. م) ظهر في مدينة سوسا عاصمة عيلام المجاورة ما يعرف بين المختصين بـ «الخط العيلامي القديم» (Pro-to Elamite Writing) الذي يعود تاريخه إلى عصر جمدة نصر (في العراق). وقد تم العثور على نماذج من هذه الكتابة مدونة على مئات من ألواح الطين والتي على ما يظهر أنها نصوص إقتصادية، والراجح لدى الباحثين أن الخط العيلامي القديم هذا، إنما ظهر بتأثير الخط المسماري الذي سبق وأن اخترعه واستخدمه السومريون في جنوب وادي الرافدين[٤]. ومما يعزز هذه الفرضية إن عيلام كانت دائمًا وأبداً تحت تأثير المقومات الحضارية التي نمت وترعرعت في جهة الغرب، أي في بلاد الرافدين[٤]. ويتجلى اعتماد عيلام حضارياً على بلاد سومر بصورة أكثر وضوحاً وذلك عندما هجر العيلاميون، في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (أي في حدود ٢٥٠٠ ق. م.) خطهم العيلامي القديم هذا، واستعملوا عوضاً عنه الخط المسماري المعروف في بلاد وادي الرافدين. وانتشر الخط المسماري، إلى الغرب من العراق في عصر مبكر جداً. إذ كشفت البعثة الإيطالية العاملة في مدينة أبلا في شمالي سوريا عن رقم طينية مدونة بالخط المسماري، يعود تاريخها إلى عصر فجر السلالات الثالث أي إلى حدود ٢٤٠٠ - ٢٣٠٠ ق. م[٥].

وانتشر الخط المسماري من بلاد آشور إلى آسيا الصغرى في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد (في حدود ١٩٥٠). بدليل العثور على ما يزيد على ثلاثة آلاف رقيم مسماري في المستعمرة التجارية الآشورية، التي

كشفت عنها التنقيبات في مدينة كول تبه (كانيش) في الأراضي التركية.[٦].

وصار الخط المسماري وسيلة التدوين المتعارف عليها في منطقة واسعة من الشرق الأدنى القديم، وخاصة في الأراضي السورية والفلسطينية كما تدل على ذلك الوثائق المسمارية المكتشفة في ماري (تل الحريري)، التي سلطت الأضواء على العلاقات بين دول المنطقة في الحقبة الزمنية المعروفة بالعصر البابلي القديم، أي ابتداء من (١٨٠٠ق. م) وتتميز هذه الحقبة من تاريخ بلاد وادي الرافدين، ضمن أشياء كثيرة أخرى، بسيطرة الأموريين في بلاد بابل (سلالة بابل الأولى) وفي سوريا (مملكة ماري). ثم شاع استعمال الخط المسماري في المنطقة في القرون القليلة اللاحقة، بشكل أوسع من أي وقت مضى حيث استعملته شعوب أخرى من غير الأموريين، مثل الحثيين في أناضوليا والخوريين والميتانيين في شمال سوريا والعراق. وفي حدود (١٤٠٠ق. م) كان الخط المسماري قد أصبح وسيلة التدوين للوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين ملوك وأمراء وحكام العراق وسوريا وفلسطين ومصر كما تثبت ذلك رسائل العمارنة.

لقد استعمل الخط المسماري في بلاد الرافدين في كتابة لغتين أساسيتين هما:

١ ـ اللغة السومرية: وهي لغة مازالت مجهولة الأصل (العائلة) ولكنها بكل تأكيد ليست من لغات الجزيرة (أي اللغات السامية سابقاً). وقد ظلت السومرية لغة محكية ورسمية في بلاد سومر وأكد فترة طويلة من الزمن، إبتداء من أقدم عصور فجر الحضارة وحتى نهاية حكم سلالة أور الثالثة، التي تعتبر آخر سلالة سومرية في التاريخ والتي سقطت في (٢٠٠٦ق. م.) بعد هذا التاريخ استبدلت اللغة السومرية بالبابلية التي كانت لغة الأموريين، حكام البلاد الجدد.

وأخذت السومرية بعد هذا التاريخ بالإضمحلال تدريجياً كلغة محكية في المجتمع.

٢ ـ اللغة الأكدية وفروعها البابلية والآشورية: وتمثل الفرع الشرقي من لغات الجزيرة، في حين تمثل الكنعانية والعبرانية والفينيقية والآرامية الفرع الغربي منها.

إن استعمالنا لتعبير «لغات الجزيرة» يتطلب منا التوقف قليلاً لتوضيح عدد من النقاط في هذا المجال، قبل مواصلة الحديث عن انتشار اللغة الأكدية إلى أجزاء مختلفة من المراكز الحضارية القديمة في الوطن العربي، فنحن ثبتنا في دراسة سابقة لنا عنوانها «الأكديون: دورهم في المنطقة»(٧) بأننا نصرف النظر كلياً عن المصطلح التقليدي «الساميون» الذي لا يستند في اعتقادنا وفي اعتقاد عدد من الباحثين إلى أساس تاريخي مقبول، وإننا نطرح بدلاً عنه مصطلح «قبائل الجزيرة» أو «الجزيريون» للإشارة إلى تلك القبائل التي كان موطنها الأصلي جزيرة العرب، والتي كانت تتكلم لغات أو لهجات تعود في أصلها البعيد إلى لغة واحدة هي الجزيرة، والتي كانت تتشابه أيضاً إلى جانب ذلك، بجملة من السمات التاريخية والحياة المعاشية اليومية والأعراف والتقاليد والقوانين والمعتقدات الدينية.

لقد ثبتنا في تلك الدراسة ثلاث نقاط رئيسية، أضفنا لها في هذا البحث نقطة أخرى لتكون أربع نقاط نرى من الضروري الإشارة إليها جميعاً بإيجاز وكالآتي:

١ ـ إن المناطق التي كانت تستوطنها القبائل المتكلمة بلغة الجزيرة تشمل في العصور التاريخية القديمة، جزيرة العرب وأطرافها الشمالية كالصحراء السورية وما يعرف بالهلال الخصيب. وإن هذه القبائل اضطرت ولأسباب مختلفة وفي حقبات زمنية مختلفة أيضاً إلى هجر مواطنها والنزوح، ثم الاستقرار في المناطق المتخضرة من وادي الرافدين والأراضي السورية والفلسطينية.

٢ ـ إننا عندما نتحدث عن قبائل الجزيرة فإننا لا نعني إطلاقاً انها كانت تستوطن المناطق الصحراوية الجرداء، بل وعلى العكس من ذلك فإن تلك القبائل كانت تتنقل في بوادي الهلال الخصيب وفي حوافِ الجزيرة طلباً للرعي. ثم إن تلك القبائل كانت على اتصال دائم بالحواضر، حيث كانوا يترددون إليها بين حين وآخر للتزود بالحبوب والتمور والأدوات والسلاح، ولا يخفى أن تلك القبائل كانت تشكل أحياناً خطراً على هذه المراكز المتحضرة، حيث نجحت وفي مناسبات عديدة في اجتياحها والاستيلاء عليها. والأمثلة كثيرة في هذا المجال.

٣ ـ وبقدر ما يتعلق الأمر بوادي الرافدين فإن هناك من الأدلة الكتابية ما يشير إلى أن قبائل الجزيرة كانت موجودة في العراق في عصر مبكر جداً. إذ تذكر الوثائق المسمارية من عصر فجر السلالات، أسماء أعلام تدل بصورة واضحة على أن أصحابها كانوا جزيريين أي من غير السومريين.

ويستدل من التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي عثر فيها على وثائق مسمارية تحمل أسماء أكدية، على أن الأكديين كانوا منتشرين في رقعة واسعة نسبياً، وأنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع في المنطقة الواقعة ضمن حدود مملكة كيش (تل الأحيمر) في بابل. ومن الأمور المعروفة لدى الباحثين أن عدداً من ملوك سلالة كيش الأولى، اثني عشر على وجه التحديد، كانوا يحملون أسماء أكدية (جزيرية)[٨].

٤ ـ ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الخصوص، ان الأموريين وهم كما قلنا من قبائل الجزيرة العربية التي كانت لغتها الكنعانية، والتي نجحت في إسقاط سلالة أور الثالثة السومرية، قدوقعت هي الأخرى تحت تأثير اللغة الأكدية عندما اتخذ منها الأموريون، الحكام الجدد، لغة رسمية في كافة كتاباتهم اليومية والتاريخية، شاركين بذلك لغتهم الكنعانية (أي الجزيرية الغربية)، والتي كان من المتوقع أن يكتبوا

بها بعد نجاحهم في الاستيلاء على مقاليد الحكم في بلاد وادي الرافدين.

إن هذه الظاهرة جديرة بالبحث والاستقصاء خاصة وانها لم تكن الشاهد الوحيد في هذا المجال، إذ من المعروف أن بلاد وادي الرافدين تعرضت خلال حقبات زمنية معينة من تاريخها الطويل، إلى أطماع وغزو واحتلال الأجنبي. ومع ذلك فقد بقيت اللغة الأكدية هي اللغة الرسمية والمحكية وبقي الخط المسماري وسيلة التدوين الوحيدة، ونذكر من تلك الشواهد أن الكوتيين الذين أسقطوا السلالة الأكدية في حدود ٢٢١١ قبل الميلاد، استعملوا الخط المسماري واللغة الأكدية ولم يصلنا شيء من كتاباتهم مدوناً بلغتهم الخاصة. وما يقال عن الكوتيين يقال عن الكاشيين ايضاً، فعلى الرغم من بقائهم في مقاليد الحكم حقبة طويلة من الزمن تقدر بخمسة قرون وعلى الرغم مما هو متوقع، فقد اتسم العصر الكاشي هذا بنشاط ملحوظ في حركة التأليف والاستنساخ لعدد كثير من المؤلفات البابلية، والتي تعتبر على قدر كبير من الأهمية في الميدانين الأدبي والفلسفي.

والشاهد الثالث عن هذه الظاهرة يبدو جلياً في الوثائق المسمارية التي كشفت عنها التنقيبات في نوزي (من القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد). إذ على الرغم من أن نوزي كانت واحدة من المدن الرئيسية التابعة للسيطرة الخورية في هذه الحقبة الزمنية، فإن اللغة الأكدية بقيت اللغة الرسمية التي استعملت في تدوين مئات الوثائق والعقود والمكافيات، التي تتناول مختلف مظاهر الحياة اليومية والاجتماعية والاقتصادية. ومثلما انتشر الخط المسماري إلى أنحاء بعيدة من وادي الرافدين فإن اللغة الأكدية هي الأخرى كانت معروفة في مناطق واسعة خارج بلاد أكد. فقد ذكرنا انه عثر في مدينة كانيش (كول تبه) التركية، على أعداد كبيرة من الرقم المدونة بالآشورية والتي يعود تاريخها إلى العصر الآشوري القديم (١٩٥٠ ق. م). وقد زودتنا هذه الوثائق

بمعلومات قيمة عن الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية في المستعمرة التجارية في هذا العصر المبكر. وهنا في كول تبه أيضاً تم العثور على ما يعرف بالقوانين الآشورية القديمة المدونة باللغة الآشورية على ثلاثة رقم من الطين. وفي العصر البابلي القديم نشطت التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء وتثبت المراسلات ووثائق البيع والشراء والتصدير التي كان يحملها الرسل Mar Shipri والمدونة باللغة البابلية والخط المسماري، مدى الانتشار الواسع للتجارة الخارجية والتي ترد الإشارة فيها إلى بلدان تمتد من إيران شرقاً ودلمون (البحرين) جنوباً إلى أبلا في شمالي سوريا وكانيش في آسيا الصغرى.

وبلغت اللغة الأكدية ذروة القمة في الانتشار في العصر الكاشي عندما صارت اللغة الدبلوماسية لأقطار العالم العربي القديم. إننا نشير هنا ضمناً إلى رسائل العمارنة والتي تثبت ضمن أشياء كثيرة أخرى، عمق العلاقة بين ملوك وادي الرافدين وفراعنة مصر. فالأخوان يورنا بورياش الكاشي (١٣٧٥ - ١٣٤٧ق. م) وأمينوفيس الرابع ١٣٦٧ - ١٣٥٠ق. م)، كما يسمي كل منهما الآخر، في المراسلات المتبادلة بينهما، قد تبادلا الهدايا المتمثلة بالخيول الأصيلة وأرطال الذهب ونفائس الأخشاب والعاج، وقد تتوجت العلاقة بينهما بالمصاهرة عندما تزوج الفرعون المصري من إبنة الملك الكاشي.

ولا بد لنا في نهاية حديثنا عن انتشار الخط المسماري واللغة الأكدية، أن نتوقف قليلاً للحديث وباختصار عن نتائج هذا الانتشار. وبهذا الصدد لا بد من الإشارة إلى نقطتين رئيسيتين:

**الأولى**: وتتعلق بتشخيص المقومات الحضارية لبلاد وادي الرافدين التي عمل الخط المسماري واللغة الأكدية على نشرها خارج القطر. فمن المعروف أن المفاهيم والمنجزات الحضارية التي يستمد منها التراث العراقي القديم طابعه الأصيل المميز له بين حضارات الشعوب القديمة، ترجع بصورة رئيسية إلى أصول سومرية ثم أكدية (جزيرية) لأن

السومريين والأكديين عاشوا متجاورين في النصف الجنوبي من وادي الرافدين حقبة طويلة من الزمن. وعلى الرغم من أن بلاد وادي الرافدين تعرضت، خلال تاريخها إلى غزو وحكم أقوام أجنبية، فإن حضارته حافظت على شخصيتها المميزة كما انها، إضافة إلى ذلك، أثرت بصورة واضحة في أفكار ومعتقدات وفنون تلك الشعوب الغازية.

ولا شك في أنه كان للسومريين الفضل في وضع «البدايات» في حقل الآداب والعلوم، في حين كان للأكديين (ومن بعدهم البابليين والأشوريين) الفضل في تبنيها وتطويرها. ففي مجال الخط المسماري موضوع البحث، كان للسومريين الفضل الأول في استنباط أقدم وسيلة للتدوين، والتي اصطلحنا على تسميتها بـ «الكتابة المسمارية». وقد أخذها الأكديون عنهم ولكنهم طوّروها وأضافوا إليها كثيراً من القيم الصوتية الجديدة مما يلائم لغتهم الجزيرية. وفي نطاق الأدب وجد الأكديون والبابليون والأشوريون مادة غزيرة في التراث السومري فدرسوها واستنسخوها من ألواحها القديمة. وقد أخذ البابليون الهيكل العام للقصة والأسطورة والملحمة السومرية، ولكنهم أضافوا إلى ذلك الهيكل «لحمًا وعصباً» على حدّ تعبير أحد أساتذة الأشوريات(١٠).

وما يقال عن الخط واللغة يقال أيضاً في مجال القانون والقضاء والمعتقدات الدينية، فأقدم القوانين المعروفة في بلاد وادي الرافدين كانت سومرية، إلا أن تشريع قانون بالمعنى الواسع لم ينجز إلا في زمن الملك الأموري حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ق. م) الذي جمع في شريعته الذائعة الصيت، تجارب من سبقه من المشرعين من أمثال أورنمو ولبت عشتار وشريعة مملكة أشنونا.

**الثانية:** إن ما حمله الخط المسماري واللغة الأكدية إلى أقطار العربية في عصورها القديمة، كان تراثاً فراتياً أصيلاً يمثل في جذوره البعيدة خلاصة منجزات السومريين والأكديين ومن بعدهم الآشوريين والكلدانيين. وبطبيعة الحال فإن الأمر لم يقتصر على الخط واللغة فقط.

فمن الحقائق المعروفة أن الكتابة واللغة وسيلتان أساسيتان لنقل العلوم والمعارف والآداب والفنون في الوقت ذاته. وهذا ما حدث بالفعل عندما انتشر الخط المسماري واللغة الأكدية إلى مناطق واسعة من الشرق الأدنى القديم.

ولا يتسع لنا المجال هنا للحديث بالتفصيل، عن التأثيرات الفكرية والعلمية التي تسربت بفضل الخط المسماري واللغة الأكدية إلى تلك البلدان، لأن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى بحث بل وإلى كتاب خاص به. ولكن نكتفي هنا بالإشارة فقط إلى أبرز وأهم الوثائق المسمارية المعروفة التي كشفت عنها التنقيبات في المراكز الحضارية القديمة من الوطن العربي خارج بلاد وادي الرافدين.

فمن المعروف أن الأدب العراقي القديم ترك أثراً واضحاً في آداب الأمم القديمة وانتشر إلى رقعة واسعة من العالم القديم. فملحمة كلكامش، التي ملأت شهرتها العالم القديم، عثر على أجزاء منها في «بوغاز كوي» عاصمة الأمبراطورية الحثية. كما عثر على ترجمة حثية وأخرى خورية لبعض أجزاء الملحمة، وكان من بين النصوص المكتشفة في تل العمارنة بوادي النيل، نسخة من القصة البابلية المعروفة بـ«قصة أدبا»، ، الذي فوت على نفسه وعلى البشرية جمعاء فرصة الحصول على الخلود الأبدي. كما عثر على رقيم يتضمن الجزء الأعظم من القصة الموسومة « ملك المعركة» والتي تدور حول استغاثة جماعة من التجار في إحدى المدن الحثية في آسيا الصغرى، بالملك الأكدي سرجون لنجدتهم من الظلم الذي لحق بهم على يد أحد المحليين ( اسمه نور ـ دجال ). وتذكر القصة أن الملك سرجون استجاب لاستغاثتهم فعبر الجبال العالية، جبال الذهب واللازورد، وقطع الغابات الكثيفة وانه في النهاية أخضع الحاكم الظالم وأنصف التجار. كما عثر في سلطان تبه، وهو أحد التلول الأثرية في حران على رقيمين من القصة البابلية الساخرة والمعروفة بين المختصين بالمسماريات بقصة «فقير من نفر».

ولا نرى حاجة هنا للحديث عن مدى الأثر الذي تركه تراث بلاد وادي الرافدين في معتقدات العبرانيين، والذي نأمل أن نأتي على تفاصيله في كتابنا القادم الموسوم «من ألواح سومر إلى التوراة»، والذي نأمل في أن يرى النور في القريب العاجل. ويكفي أن نقول الآن بأن تلك التأثيرات شملت نقاطاً جوهرية في المعتقدات العبرانية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: تشابه قصة مولد موسى وقصة سرجون، نشيد الأنشاد لسليمان الذي له ما يناظره في الأناشيد السومرية الخاصة بالزواج المقدس للاله تموز، صبر أيوب وقصة الرجل البابلي المعذب، الطوفان ومواضيع أخرى كثيرة. . .